9 - السيدة أم كجَّة الأنصارية

الزوجة المسلمة

أم كجَّة امرأة فاضلة من فواضل نساء الأنصار، تزوجت من أوس بن ثابت الأنصاري، وهو من بني عدي بن عمرو بن مالك، ينتهي نسبه إلى بني النجار في المدينة.

كان أوس بن ثابت أحد الذين حضروا بيعة العقبة الثانية مع أشراف قومه، وشهد استقبال أهل المدينة لرسول الله ﷺ حين هاجر إليها، وشارك في بناء المسجد النبوي الشريف.

وكانت أم كجَّة وزوجها أوس على وفاق تام، وأتم انسجام، وتمسكٍ بالإسلام، فالمرأة مطيعة لزوجها ترعى حقه وتحفظه في ماله ونفسها، والزوج يعرف حقوق زوجته، ويقدرها حق قدرها، حتى كانا نعم الشريكين أحدهما للآخر، وتمكَّنا من بناء بيت متين أقاماه على دعائم الإسلام، وحصَّناه بنور الإيمان.

وكانت أم كجَّة تحضر مع النساء مجالس رسول الله ﷺ لينهلن من حديثه من وراء حجاب، وكان أوس لا يتخلف عن مجالس الرجال، والصلاة خلف رسول الله ﷺ.

وكانا قد رُزقا بطفلةٍ أيام الجاهلية، فاتفق أوس مع زوجه أم كجة على الإبقاء على حياتها، ولم يعمدا إلى وأدها كما كان قومهما يفعلون.

وكانت أم كجَّة ﵂ إذا فرغت من صلاتها وأدَّت واجباتها تجاه زوجها وصغيرتها تعكف على رقاعٍ من الجلد، أو سعف النخل لتقرأ ما كتبه عليها زوجها من آيات القرآن، لتحفظ منها ما استطاعت.

أمنية الجهاد في بدر

وذات يوم دخل أوس على زوجه مسرعاً، فأخذ سلاحه ولبس لباس الحرب، وأخبرها أنه ماضٍ مع رسول الله ﷺ إلى بدرٍ لقتال المشركين من قريش، وإعلاء كلمة الله، فلم يجد منها توهيناً لعزيمته، ولا تثبيطاً لهمته، ولم تقل له: إلى من تكلني؟ لأنها تعي أن الله ولي المؤمنين ومولاهم، وأن الكافرين لا مولى لهم، لقد دعت له وللمسلمين بالنصر والعودة سالمين غانمين منصورين لأعدائهم داحرين.

ولكن كان في فمها كلامٌ ترددت في قوله أولاً، ثم أطلقته من محبسه، وقالت: «وددت لو أني خرجت معكم لمجاهدة المشركين، حتى أفوز بثواب المجاهدين مثلك لنكون متعادلين» ولم يجد أوس بدّاً من أن يبتسم، ثم قال لها: «يا أم كجَّة، أنسيت أنك حامل في شهرك الأخير، ولا يصلح لك أن ترافقينا إلى ساحات القتال؟ ومن الذي يرعى طفلتنا في غيابك؟ ثم إذا كان جهادي لا يكفيك، فإني معاهدك على أن أقاتل بجهدٍ مضاعفٍ ليكون الأجر ضعفين لي ولك، فماذا تقولين؟».

أي رجلٍ طيبٍ أنت يا أوس حتى في ساعة الجد تريد أن تكون مرحاً مع زوجتك وأم طفلتك لتدخل السرور على نفسها، ولا تدع للحزن سبيلاً إليها!! ولم تجد أم كجَّة إلا أن تبتسم، ثم ودعت زوجها ببعض الدعوات الطيبة له وللمسلمين.

انتصار الحق على الباطل

وكانت ملحمة بدر أروع الملاحم في تاريخ الإسلام، فقد قضت على رؤوس المشركين، وزلزلت الأرض من تحتهم، ومنحت الثقة للمسلمين بنصر الله، وإن كانوا قلة أمام عدو كثير.

وعلى أرض بدر كان أوس بن ثابت يجاهد الكفرة أعداء الدين، بينما كانت أم كجَّة تكابد آلام المخاض، وما هي إلا سويعات حتى وضعت طفلتها الثانية، فتقبلتها بفرحة وسرور.

كانت المعركة ضارية بين الكفر والإيمان، وكانت الهزيمة لأعداء الله والإنسان، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المشركون، وتهاوت الرؤوس الجاحدة، وسقط الذين كادوا للإنسان، وأنزلوا بأتباعه صنوف العذاب، وبات أبو جهلٍ، وعتبةَ وشيبةَ ابنا ربيعة، والوليد بن عتبةَ، وأُميَّة بن خلف، وعقبة بن أبي معيط، وسائر السفهاء والضَّلاَّل صرعى على أرض بدر ثم استقروا في قعر بئرها.

ومنح الله لرسوله وللمؤمنين ما وعدهم من النصر، وطارت أنباؤه إلى المدينة التي خرج أهلها لاستقبال جند الله المنتصرين، وخرجت النساء، هذه تريد أن ترى أباها، وتلك تودُّ معرفة ما حلَّ بأخيها، وأخرى تتطلع إلى عودة ابنها.

عودة المجاهد البطل

وأما أم كجَّة فقد كانت ترغب في عودة زوجها أوس ليرى طفلته الجميلة التي وضعتها خلال غيابه، ولكن هل يتحقق ذلك؟ وها هم أبطال النصر يتبادرون في الوصول إلى المدينة زرافات ووحداناً، وتتفرس أم كجَّة في وجوههم فلا ترى فارسها، ويساورها القلق، وتنتابها الوساوس، وتعتريها المخاوف حول مستقبل طفلتيها إذا غاب أبوهما عن مسرح الحياة، أفكار سود، وأوهام داكنة أحدقت بأم كجَّة لم تستغرق إلا دقائق معدودات ثم لم تلبث أن تبددت سريعاً كما تتبدد سحب الصيف.

ها هو ذا أوس يحثُّ خطاه إلى زوجه أم كجَّة، لقد عاد البطل إلى طفلتيه وامرأته ليغمرهن بعطفه وحنانه، كان أوس يتمنى أن يرزقه الله ذكراً، ولكن الله يهب لمن يشاء إناثاً، ويمنح لمن يشاء الذكور، وما دام الأمر عطية من الله فكل ما يعطيه ينبغي للإنسان أن يتقبله بنفس راضية، فهو العزيز الوهاب الذي لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون.

والتأم شمل أوس بأسرته، وضّم طفلتيه إلى صدره، وراح يغدق

عليهما من قبلاته، وراحت أم كجّة تطلق الدعوات إلى الله، وتلهج بالشكر والثناء لما امتنَّ به على المسلمين من الفضل وعودة زوجها سالماً منصوراً.

وبعد أن نال أوس حظه من الراحة، أخذ يحدث زوجه أم كجّة عن مشاهد البطولة التي أبداها أصحابه، وعن المصير المخزي الذي لقيه صناديد الكفر وأعوان الضلال بيد إخوانه المؤمنين.

في غزوة أحد

لكن قريشاً حين رأت فداحة خسارتها وعظيم مصابها لمَّت شتاتها، وأخذت تؤلِّب القبائل العربية ضد الإسلام حتى لا تذوق المرارة التي ذاقتها، واستطاعت أن تحشد قرابة ثلاثة آلاف مقاتل بينهم مئتا فارسٍ بإمرة فارسها المقدام خالد بن الوليد.

ولما وصل الخبر إلى المسلمين في المدينة صار الصحابة في هرج ومرج، أما رسول الله ﷺ فقد روى الدارمي عَنْ جَابِرٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: **«رَأَيْتُ كَأَنِّي فِي دِرْعٍ حَصِينَةٍ، وَرَأَيْتُ بَقَرًا يُنْحَرُ؛ فَأَوَّلْتُ أَنَّ الدِّرْعَ الْمَدِينَةُ، وَأَنَّ الْبَقَرَ نَفَرٌ؛ وَاللهِ خَيْرٌ، وَلَوْ أَقَمْنَا بِالْمَدِينَةِ فَإِذَا دَخَلُوا عَلَيْنَا قَاتَلْنَاهُمْ»** فَقَالُوا: وَاللهِ، مَا دُخِلَتْ عَلَيْنَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، أَفَتُدْخَلُ عَلَيْنَا فِي الإِسْلامِ؟ قَالَ: **«فَشَأْنُكُمْ إِذًا»** وَقَالَتْ الأَنْصَارُ لِبَعْضٍ: رَدَدْنَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ رَأْيَهُ، فَجَاؤُوا فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، شَأْنُكَ، فَقَالَ: **«الآنَ؟ إِنَّهُ لَيْسَ لِنَبِيٍّ إِذَا لَبِسَ لأْمَتَهُ أَنْ يَضَعَهُ حَتَّى يُقَاتِلَ»**[1].

وجهَّز رسول الله ﷺ إلى أُحد ألف مقاتل، ولكن المنافق الأكبر ابن أُبي انسحب مع ثلاثمائة من أهل الريب والنفاق، فبقي مع رسول الله ﷺ سبعمائة مقاتل فقط، حدَّث شُعْبَةُ، عَنْ عَدِيِّ بْنِ ثَابِتٍ، سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ

(1) رواه: الدارمي/ كتاب: الرؤيا/ باب: في القمص والبئر واللبن والعسل والسمن والتمر/ برقم: (2065).

يَزِيدَ، يُحَدِّثُ عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ رضي الله عنه قَالَ: لَمَّا خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى أُحُدٍ رَجَعَ نَاسٌ مِمَّنْ خَرَجَ مَعَهُ، وَكَانَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ فِرْقَتَيْنِ، فِرْقَةٌ تَقُولُ: نُقَاتِلُهُمْ، وَفِرْقَةٌ تَقُولُ: لا نُقَاتِلُهُمْ فَنَزَلَتْ الآية الكريمة من قوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾﴾ [النساء: 88 - 89] وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّهَا طَيْبَةٌ تَنْفِي الذُّنُوبَ كَمَا تَنْفِي النَّارُ خَبَثَ الْفِضَّةِ**»(1).

ولم يستطع أوس في هذه المرة منع أم كجَّة من الخروج إلى أُحد، لقد تركت ابنتيها عند أمها، وهي وإن لم تكن متمرسة على القتال، لكنها قادرة على معالجة الجرحى، وتهيئة الضمادات، وسقي العطاش من المجاهدين، لقد كانت أم كجَّة توَّاقة إلى الجهاد، وها هي ذي تحقق حلمها في أُحُدٍ بصحبة زوجها أوس.

ولما انسحب المنافقون بناءً على أمر زعيمهم ابن أُبي، لحق بهم أبو جابر عبد الله بن عمرو بن حرام وقال لهم: أُذكِّركم الله، لا تخذلوا قومكم ونبيكم قالوا له: لو نعلم أنكم تقاتلون ما تركناكم، ولكن لا نرى أن يكون قتال، ولما يئس أبو جابر من إقناعهم قال لهم: أبعدكم الله، يا أعداء الله والدين، فسوف يغني الله عنكم ورسوله ومن اتَّبعه من المؤمنين الصادقين.

وسجَّل القرآن الكريم تخاذل المنافقين وجدالهم ونفاقهم ومخادعتهم في قوله تعالى: ﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ

(1) رواه: البخاري/ كتاب: المغازي/ باب: غزوة أحد/ برقم: (3744).

أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ قُل فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾ [آل عمران: 167، 168].

وعلى الرغم من أن عدد المسلمين كان سبعمائة، والمشركين ثلاثة آلاف فإن بداية المعركة رجحت كفة المسلمين، لكن ترك رماة المسلمين مواقعهم التي أمرهم رسول الله ﷺ ألا يبرحوها مهما كانت نتيجة المعركة غيَّر نتيجة المعركة، إلا أن الرماة تركوها حتى لا تفوتهم الغنائم التي خلَّفها المشركون على أرض المعركة، حيث انقضَّ خالد بن الوليد - وكان مشركاً يومئذٍ - على رماة المسلمين من خلفهم، وأعمل فيهم القتل، وهُزم المسلمون هزيمة قاسية بعصيان الرماة أوامر قائدهم الأعظم ﷺ.

وفاة زوجها شهيداً

وسقط العديد من الشهداء، كان منهم حمزة بن عبد المطلب، وسعد بن الربيع، وعبد الله بن عمرو بن حرام، وحنظلة الغسيل، وعمرو بن الجموح، وأنس بن النضر.

ورأت أم كجَّة ما أبداه زوجها أوس من الشجاعة في مناجزة المشركين، غير أنه اخترق صفوف العدو، وغاب عن عينيها وسط الزحام فلم تعد تراه.

ولما توقف هدير المعركة أخذ نساء الأنصار ينظرن القتلى، ولمحت أم كجَّة فارسها راقداً بلا حراكٍ وقد غرق جسده الطاهر بدمه، فراحت تسترجع وتستغفر، وتنازعها حزن وسرور في وقت معاً، فالحزن لأنها وابنتيها أصبحتا دون معيل، والسرور لأن زوجها فاز بالشهادة.

وتنزل الآيات بسببها

وفيما كانت أم كجَّة تكابد آلام فراق شهيدها الغالي جاء ابن عمٍّ أوس وسلب كل ما خلَّفه من مال دون أن يترك لها ولابنتيها أي شيء تستعين به في تدبير معاشها وفقاً لتقاليد الجاهلية الظالمة.

وذهبت أم كجَّة إلى رسول الله ﷺ لتخبره بما كان، فاستدعى النبي ﷺ ابن عم أوس وسأله عن المال فقال: يا رسول الله، ليس لها ولد يركب فرساً، ولا يحمل كلاً، ولا يقتل عدوّاً، ونظام الجاهلية لا يورِّث النساء ولا الصغار إذا مات الزوج فقال رسول الله ﷺ: «**اِنْصَرِفُوا، حَتَّى أَنْظُرَ مَاذَا يُحْدِثُ اللهُ لِي فِيهِنَّ**».

وقعدت أم كجَّة مع ابنتيها ينتظران أمر الله تعالى في أمرهن، وقد استقر في روعها أن الله يأبى الظلم لأن العدْل واحد من أسمائه الحسنى.

ونزل قوله تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾﴾ [النساء: 7 - 11].

ودعا رسول الله ﷺ أم كجَّة وابنتيها وابن عم أبيهما، وقال للرجل: «**أَعْطِ البِنْتَيْنِ الثُّلُثَيْنِ، وَأَعْطِ أُمَّهُمَا الثُّمُنَ، وَمَا بَقِيَ فَهُوَ لَكَ**»، فهل بعد عدالة السماء مطلبٌ لأحدٍ أو رجاء؟ رحم الله أم كجَّة وجزاها عنا خير الجزاء ورضي عنها وأرضاها.